زواج تولســـتوى (*)

للأســـتاذ محمود الخفيف

— ٢ —

وجلس تولستوى يحدث رب الدار وابنته فى إحـــدى الحجرات ، ويستعيد ذكريات الماضى ، وانضم البنات إلى أمهن وجدهن ولبثن يستمعن وكانت أمهن تضيح بهن الفينة بعد الفينة ليأوين إلى مضاجعهن ولكن حديث الكونت كان يسحرهن حتى تبين الجد فى لهجة أمهن فقمن متثاقلات لينمن .

وتبعهن تولستوى إلى باب الحجرة ، ثم استوقف سونيا قائلاً إنه يريد أن يفضى إليها بحديث وخفق قلب الفتاة ، ومشت معه إلى منضدة للعب الورق فى إحدى الحجرات ، ولندع تاتيانا تقص علينا ما كان بينهما من حديث قالت « الشيطانة الصغيرة » فى مذكراتها « لقد طلب إلىّ أن أغنى ولما كان ذلك آخر ما أرغب فيه وقتئذ ، فقد هربت إلى الثوى واختفيت تحت البيان .. وبعد دقائق دخل الحجرة تولستوى وسونيا ، وكان يبدو عليهما الاضطراب فى صورة غير عادية ، وجلسا إلى منضدة اللعب ... وقالت سونيا : هكذا ترحل غداً ؟ ولماذا تعجل على هذا النحو ؟ إننا سوف نفتقدك ، وأجاب تولستوى : إن مارى وحدها وهى تتأهب للسفر إلى الخارج . وسألته سونيا : أتسافر معها ؟ وقال الكونت : كلا . لقد كنت أرغب فى ذلك ولكنى الآن لا أستطيع . وتراجعت سونيا ثم تسأله لم لا يستطيع فأنها تدرك ماذا يكون الجواب ، ورأيت فى وجهها ما يشعر أن شيئاً خطيراً يوشك أن يحدث ، ووددت أن أخرج من مخبئى ولكنى خجلت من ذلك فبقيت ساكتة . وقالت سونيا : هيا بنا إلى الفناء فإنهم لابد يبحثون عنا ؛ وقال الكونت : لا . . أرجو منك أن تظلى لحظة ... وكان يكتب شيئاً ما على المنضدة بقطعة من الطباشير ، ثم قال فى صوت متهدج من أثر اضطرابه : أتستطيعين أن تقرأى

صوفيا بيرز قبيل زواجها

ما أكتب لك إذا استعملت الحرف الأول من كل كلمة فحسب ؟ وأثبتت فى وجهه نظرة وقالت: أظن أنى أستطيع. وكتب تولستوى الحروف ، وكأنما أوحى إلى أختى فقرأت : إن شبابك وتطلعك للسعادة يذكرنى تذكيراً قوياً بشيخوختى وباستحالة السعادة على وكان يعينها تولستوى بعض العون فى قليل من هذه الكلمات . وكتب حروف غيرها ، فقرأت إن فى أسرتك خطأ حول أختك وحولى ، ينبغى أن تعيفينى أنت وتانيانا ...

هذا ما ذكرته تانيانا ، وتضيف إليه أنها ما كادت تجيب حتى صاحت بها أمها : سونيا ! إذهبى إلى سريرك . هل تفعلين ؟ وأسرعت سونيا إلى مخدعها .

وبعد بضعة أيام زارت زوجة بيرز وبناتها ياسنايا ثانية لتوديع مارى قبل سفرها ، وكان تولستوى ساكناً يطيل التفكر أثناء هذه الزيارة ، ولما تأهبن للرحيل قال لهن : سوف أذهب معكن إلى موسكو إذ كيف أستطيع أن أبقى هنا دونكن .. إن مقامى هنا يكون من الكآبة والوحشة بحيث لا أطيقه ...

(*) فصل من كتاب « تولستوى » الذى سوف تقدمه إلى المكتبة العربية قريباً « مطبعة الرسالة » .

سافرن فكان معهن حتى بلغن موسكو ...

وذهب آل بيزوخ من موسكو إلى بيتهن الريفي في قريتهم كروفسكوي ، ووعدهم تولستوي أن يوافيهم إليها بعد قليل .. ودت إليه في وحدته هواجس نفسه ، كما كانت حاله مع ڤاليريا خذ يسأل نفسه عما يشعر به ، أهو الحب حقاً أم أنها الرغبة الحب ؟

وذهب إلى بوكروفسكوي كما وعد ، وكانت لا تزال تعتقد ا أنه يحبها وأنه سوف يخطبها إلى نفسه ؛ وكانت تتنازع حلام والمخاوف قلب سونيا .

ووجد تولستوي في بوكروفسكوي معلماً شاباً يدعى يوسف الخامسة والثلاثين من عمره يخفي في نفسه نحو سونيا ما يبديه دده إليها وما يشبه النزل من حديثه ونظراته ؛ وكانت تحس ونيا ميله إليها فأغرته بعض الأغراء ، ولكن بالها وقلبها كانا ، الكونت وإن غاب .

وفعلت الغيرة فعلها في قلب تولستوي ، فكان كثيراً ما يأتي ، القرية وكانت على نحو اثني عشر ميلاً من موسكو وكان يؤثر ، يذهب إلى هناك ماشياً في أكثر الأحيان .

وبات موقفه من الأسرة غريباً فهو لا يتقدم بالخطبة إلى ليزا نه في الوقت نفسه ليكثر من غشيان بيتهم أينما كانوا كما لو كان حداً منهم ؛ ولذلك لم يكن عجباً أن يظن الطبيب أن جمال امرأته ، الذي يجذب إلى بيته هذا الكونت الناضج .

وكان لا يفتأ يسأل تولستوي نفسه أما آن له أن يستبطن خيلة سونيا وأن يدرك حقيقة عقلها ووجدانها ، فإن اختياره وجة لا تصلح له بعد عنده كارثة لا يكون معها رجاء ...

وسألها هل تكتب مذكرات ، فقالت : لا ولكنني عبرت ن حقيقة شعوري في قصة كتبتها ا والح عليها الكونت أن رأها فأبت أول الأمر ، ثم تظاهرت أمام إصراره أنها تعطيها ، على كره ..

ترى هل كتبت سونيا هذه القصة ليقرأها تولستوي ؟ ذلك يكاد يؤدي إلى الجزم به موضوعها .

كان في القصة رجلان : أولهما البرنس دوبلتسكي ، وهو في منتصف العمر نشط ذكي قليل الآراء ، ليس على قدر كبير من الوجاهة ؛ وثانيهما فتى في الثالثة والعشرين ، هادىء ساكن يتمسك بكثير من النزل العالية واسمه سميرنوف .

وكانت بطلة القصة تدعى هيلين وهي فتاة جميلة ذات عينين دعجاوين ساحرتين ؛ ولهيلين أختان واحدة أكبر منها تدعى زنايدا وهي فتاة بارد الطبع ، والأخرى أصغر منها وتدعى نتاشا وهي بنت في الخامسة عشرة لعوب مرحة .

وكان يغشى دوبلتسكي بيت الأسرة دون أن تخالجه أفكار الحب ؛ وكان سميرنوف يحب هيلين ، وكانت تحس بميل نحوه ، وقد اقترح عليها الزواج ولكنها لم تستطع أن تقطع برأي واعترض أهلها على هذا الاقتراح من شاب في مثل سنه وعدوه بعض عبث الشباب ، ثم اضطرته ظروف العيش إلى السفر فغاب غيبة طويلة .

وكانت زنايدا تميل إلى دوبلتسكي ، وكان يكثر غشيان البيت ولكنها ظلت في حيرة من أمره كما كانت هيلين في حيرة من أمر شعورها لا تدري ماذا تريد ، ولا تستطيع أن تقول حتى لنفسها إنها أوشكت أن تحب دوبلتسكي ؛ وكان يؤلمها أنها ربما كانت تخدعه وتخدع أختها ؛ وطالما حاولت أن تغالب عواطفها ولكن تلك العواطف كانت تغلبها ؛ وظهر من دوبلتسكي أنه يحبها أكثر مما يحب أختها وذلك ما جعله يبدو في نظرها أكثر مما كان جذباً لها ، لم تفهم حقيقة شعوره وكان يتعبها ويضايقها غموضه وانطواؤه على نفسه .

وعاد سميرنوف ، ولم تطق هيلين أن ترى ما يظهر من تألم إذ شعر أنها تحب دوبلتسكي ، فاعتزمت أن تدخل الدير ؛ ثم إنها احتالت حتى قربت بين دوبلتسكي وأختها زنايدا ، وزفت هي بعد ذلك إلى سميرنوف .

سهر تولستوي حتى قرأ القصة ولقد وقف عند أشياء فيها ومن أهمها ما وصف به دوبلتسكي من بعد عن الوجاهة ومن غموض في الفكر ... أهذه صورته في نفس سونيا ؟ لقد طالما كانت هيئته مبعث ألم لنفسه وهو صغير فهل يتجدد اليوم ألمه وهو في الرابعة والثلاثين ؟ . ذلك ما تحدثه به نفسه بعد قراءة